

خصائص شعر المتّبّي

د. عبد القادر عيساوي

جامعة سيدني بلعباس

عبر تاريخ الأدب العربي الموجل في القلم، بز وانتشر الكثير من الأدباء البلغاء، والشعراء الأفذاذ، الذين تركوا آثاراً أدبية كثيرة، وإن تجاهلت شعرية وفيّة. وهي إفرازات رائعة البيان، وحصيلات فريدة البرهان، وخارقة التسنج، وبديعة السبك. وكان من أولئك شاعر العرب الناصع أبو الطيب المتّبّي، الذي عاش في العصر العباسي، العصر الذهبي للعرب والمسلمين.

وقد تضمنَ شعر المتّبّي، الذي احتواه ديوانه، على العديد من الأغراض الشعرية، التي باح بها اللسان الفصيح، لهذا الشاعر الفذ. وقد توزعت تلك الأغراض على مختلف أشعاره، من أبيات ونثف ومقطوعات وقصائد. وتمثل تلك الأغراض في المدح والفحش، والرثاء والحكمة، والغزل والخمرات، والوصف والهجاء، والوجودان والغنائية، وغير ذلك. وعرفت هذه الأغراض، الشعرية الكثيرة، أهمية بالغة من قبل أطّراف عديدة، من باحثين وناقدين وغيرهم. وقد استأثر باهتمام محبيه، وانتشر صيته في الآفاق وعلى مر الأزمان.

وقال أبو الطيب المتّبّي شعره في مراحل مختلفة من حياته، منذ صباه حتى آخر عمره، وفي حالات متعددة مرّت به، سواء كانت إيجابية بالنسبة له أو سلبية، وأمام أشخاص مختلفين، وضيّعين أو رفيعين، ولادة وأمراء، وأدباء وشعراء أو غير ذلك. وفي كل ذلك أجاد الشعر آلياً إجادته.

وقد اعتبرت المتّبّي بشعره طوال حياته عموماً، وفي حلب ومصر خصوصاً، لأن البيئة في كلا القطرين كانت على جانب عظيم من الثقافة. لذلك عُرف بـ*بليغ حار في الشراج*.¹

وتصف شعر المتّبّي بالعديد من الخصائص، وامتاز بالكثير من الميزات، في مواضع مختلفة، و مجالات متباعدة، وجوانب متعددة، منها الجوانب الفنية والفلسفية واللغوية. وباستطاعتنا إجمال هذه الخصائص في الآتي: كثرة شروح ديوان المتّبّي، كثرة الطابع الغنائي والوجوداني للمتّبّي، البلاغة، البعد الفلسفى، الثورية، كثرة الشعر في الشخص الواحد، التأي عن اللهوى والنساء والخمرة، التعلّى والبداوة، الغزل العفيف، الحكمة، قلة وصف الطبيعة والملاهي، حدة الهجاء، قلة الألفاظ غير النزيهة.

ويمكن تقديم وعرض وبيان الخصائص التي تميّز بها شعر المتّبّي، في هذا المقال، عبر الأمور التالية:¹

١ - كثرة شروح ديوان المتبني

وفي هذا يقول التعالبي بأنه لم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الإسلام، شرح مثل هذه الشروح الكثيرة سوى ديوان المتبني. ويعود الفضل إلى ابن جنني رائد الدراسات المتباينة في شرحه الكبير.

وفي هنا الصدد يقول عبد الرحمن البرقوقى: شراح ديوان المتبني كثيرون، منهم : ابن جننى ، والواحدى ، وابن فورجيه ، وابن قطاع الصقلى ، وابن الإقليلى ، والصاحب ابن عباد ، وأبو بكر الخوارزمى ، والعميدى (صاحب الإبانة عن سرقات المتبني) ، وابن وكيع ، والخطيب التبريزى ، والعكربى ، وابن الشجري ، والقاضى الجرجانى ، وأبو العلاء المعري .

وبحسب البرقوقى فإن من هؤلاء الشراح " من لم يضع شرحاً بالمعنى المتعارف ، وإنما تصلوا لشرح بعض مشكلات الآيات ، أو لنقد بعض الشرح فيما ذهبا إليه من شرح وتفسير أو لسرقات المتبني ، مثل أبي السعادات ابن الشجري ، وابن فورجه ، وأبي الفضل العروضي ، وابن وكيع ، والصاحب ابن عباد ، وأبي بكر الخوارزمى ".^١

كما أن هناك في العصر الحديث من قاموا بشرح ديوان المتبني منهم : اليازجي ، والبرقوقى . إلى جانب شرح الواحدى الموجود على الإنترنت .

ويوجد من تصدى لشرح بعض أشعار المتبني أو بعض قصائده ، كما نلاحظ ذلك في الكثير من الكتابات والمقالات والبحوث الجامعية . وقد قمنا ، في كتابين مستقلين مطبوعين لنا ، بشرح دراسة قصيدين للمتبني ، إحداهما فخرية مطلعها (كم قتيل كما قُتلت شهيد) ، والقصيدة الأخرى مدحية تخص موقعة الحدث .^١

٢ - غلبة المدح والقبح

قال المتبني شعره في العديد من الأغراض الشعرية ، وكان أبرزها وأكثرها المدح والقبح . حيث احتل هذان الغرضان حصة الأسد ، وهما يقعان في المرتبة الأولى بعدد آيات قدره ٣٩٩٤ بيتاً ، من المجموع الإجمالي للآيات المقدرة بـ ٥٣٥٢ بيتاً ، الجموعة في ديوانه ، أي بنسبة ٧٤.٦٣٪ . وفي كتابينا "المدح" و"القبح" معلومات كثيرة ، وتفاصيل وفيرة ، عما قاله المتبني في هذين الغرضين الشعريين .

٣ - كثرة الطابع الغنائي والوجданى للمتبني

اتصف المتبني بهذه الميزة خصوصاً في مصر مقارنة بغيرها من المناطق التي حل بها (العراق ، الشام ، فارس) .

وميمية المتنبي، التي قالها سنة 348 هـ في وصف الحمى، تُعتبر من أرق ما عرف الشعر العربي في مختلف مراحله. ففيها العلوية وعلو الطبة، وفيها تحريك مشير للألم. ولعل قيمتها الحقيقة في الجرس الحزين لا في التصوير البارع.^١

٤- البلاغة

شعره في الدرجة الأولى من المثانة والبلاغة، وهو مشهور بضخامة المعاني ومتانة المباني، خصوصاً المديح والفخر والحماسة والحكم والبيان. ومفضى على شعره أكثر من ألف سنة، ولا يزال موضوع مناقشات أهل الأدب، ومحور ترديد المعجبين من الحفاظ، وتقليد الشعراء.

٥- البعد الفلسفـي

يرى الحاتمي أن البعد الفلسفـي هو المظهر الوحـيد للذابـ في شـرـ المـتنـبيـ. غيرـ أـنـاـ نـرىـ بـأنـ المـخـاصـيـةـ الـفـلـسـفـيـةـ تـعـدـ إـحدـىـ الـخـاصـيـاتـ الـبـارـزـةـ وـالـجـاذـبـ فيـ شـرـ شـاعـرـناـ المـتنـبيـ،ـ وـلـيـسـ الـوـحـيدـةـ.

٦- الثورية

شعر المتنبي حافـلـ بالـأـفـكـارـ الـثـوـرـيـةـ الـتـيـ تـسـرـيـتـ إـلـيـهـ مـنـ الـمـذـهـبـ الـبـاطـنـيـ وـالـقـرـمـطـيـ.ـ فقدـ قـيلـ أنهـ عـاـشـ فـتـرـةـ مـنـ الزـمـنـ فـيـ أحـدـ مـخـيـمـاتـ الـقـرـامـطـةـ.ـ وقدـ كـانـتـ فـرـقةـ الـقـرـامـطـةـ شـهـيرـةـ بـالـتـمـرـدـ وـالـعـصـيـانـ عـلـىـ وـلـاـةـ الـإـسـلـامـ،ـ وـمـعـروـفةـ بـمـخـالـقـتـهـاـ لـمـاـ عـلـيـهـ أـغـلـيـةـ الـمـسـلـمـينـ،ـ لـذـلـكـ كـانـتـ تـتـخـذـ مـسـلـكـ الـقـيـامـ بـالـثـورـاتـ،ـ وـإـحـدـاتـ الـاضـطـرـابـاتـ.

٧- كـثـرةـ الشـعـرـ فـيـ الشـخـصـ الـواـحـدـ

لمـ يـقـلـ شـاعـرـ عـرـبـ فـيـ شـخـصـيـةـ مـلـكـ أوـ أمـيرـ أوـ وـالـ أوـ شـرـيـ أوـ غـيرـ ذـلـكـ.ـ مـثـلـماـ قـالـ المـتنـبيـ فـيـ سـيفـ الدـولـةـ،ـ قـدـ خـصـهـ خـالـلـ يـسـعـ سـنـوـاتـ بـقـصـائـدـ كـثـيرـةـ جـاؤـتـ الشـانـينـ،ـ وـكـانـ مـدـحـهـ لـهـ صـادـقاـ،ـ وـنـابـعاـ مـنـ عـاطـفـةـ صـادـقةـ.ـ وـبـذـلـكـ صـارـ المـتنـبيـ وـسـيفـ الدـولـةـ يـشـكـلـانـ ثـائـةـ كـبـيرـةـ وـيـاهـرـةـ،ـ فـيـ الشـعـرـ خـصـوصـاـ،ـ وـالتـارـيخـ عـمـومـاـ.ـ وـفـيـ ذـلـكـ يـقـولـ (ـبـلاـشـيرـ)ـ:ـ «ـ لـوـلاـ سـيفـ الدـولـةـ لـمـ اـعـرـفـ المـتنـبيـ .ـ»^٢

كـمـاـ أـنـ المـتنـبيـ قـالـ أـشـعـارـاـ كـثـيرـةـ فـيـ كـلـ حـاكـمـ كـانـ يـلـتـقـيـ بـهـ،ـ مـنـهـمـ كـافـرـ الـإـخـيـديـ.

٨- النـأـيـ عـنـ الـلـهـوـ وـالـسـاءـ وـالـخـمـرـ

لـقـدـ اـبـتـدـعـ المـتنـبيـ عـنـ كـلـ هـذـهـ الـأـمـورـ،ـ فـكـانـ قـلـيلـاـ مـاـ يـشـرـبـ الـخـمـرـ،ـ وـسـرـاـ لـاـ عـلـىـ،ـ وـدـونـ أـنـ تـعـقـدـ الـوعـيـ كـغـيـرـهـ مـنـ الشـعـرـاءـ مـاعـدـاـ عـنـتـرـةـ،ـ وـحـتـىـ عـنـدـ شـرـبـهاـ كـانـ لـاـ يـفـوتـهـ طـلـبـ الـتـعـالـيـ.

إـذـاـ مـاـ شـرـبـتـ الـخـمـرـ صـرـفاـ مـهـيـئـاـ شـرـبـتـاـ الـذـيـ مـنـ مـقـلـيـهـ شـرـبـ الـكـرـمـ^٣

وـعـنـدـ إـحـصـائـاـ لـعـدـدـ الـأـيـاتـ الـشـعـرـيـةـ الـتـيـ قـالـهـاـ المـتنـبيـ فـيـ غـرـضـ الـخـمـرـيـاتـ،ـ وـجـدـنـاـهـاـ تـحـتلـ الـمـرـتـبـةـ الـأـخـيـرـةـ بـمـقـدـارـ يـتـيـنـ اـثـيـنـ،ـ مـنـ أـيـاتـ دـيوـانـهـ،ـ أـيـ بـنـسـبـةـ 0.04%ـ قـرـيـباـ.

٩ - التعالي والبلادة

إن التعالي والبلادة أثراً على المتبني حتى أصبحت نظرته جافة تجاه المرأة، وصار يُؤثر حب نفسه على غيره، بخلاف شعراً كثرين نظروا إلى المرأة بتجليل، وأحياناً بتنديس. ولم يقل المتبني شيئاً في المرأة باستثناء جلته - التي يعتبرها كاملة - ، وكذا خولة اخت سيف الدولة، التي تبادل معها الحُب والإعجاب، والتي رثاها بقصيدة مطلعها "طوى الجزيرة"، وأيضاً "البدويات الرَّعَاییب".

١٠ - الغزل العفيف

خلال غزل المتبني من المجنون والمهير ومن العاطفة القوية، لأنّه كان متعمقاً نائماً عن الحب الفاجر والقبيان والملاهي. وغزله قليل، وما قاله إلا سيراً مع العادة. وأكثر غزله بدوي، ولم يُؤثر عنه غزل حضري إلا عند وجوده بفارس. وما ثبت عنه في الغزل قوله:

الناعماتُ القاتلاتُ الْمُحِيَّاتُ الْمُبْلِيَّاتُ مِنَ الدَّلَالِ غَرَابِيَا

١١ - الحكمة

أثّرت تجاربُ المتبني المتوعدة والعنيدة، ومعاشرته لكافحة طبقات المجتمع، واستفادته من اليونان - لاسيما أرسطو - ، كلمات بلغة وآراء صافية وأقوالاً مؤثرة، أصبحت حكماً سائرة على مر الأ أيام، وصار بذلك المتبني حكيم الشعراء، إذ يقول:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الْهَوَانَ عَلَيْهِ مَا لِجَرْحٍ يَمْسِي إِلَّا
ذُو الْعَقْلِ يَشْفَى فِي التَّعْيِمِ بِعَقْلِهِ وَأَخْوَ الْجَهَالِ فِي الشَّفَاؤَةِ يَتَمَّ

١٢ - قلة وصف الطبيعة والملاهي

أشّم وصف المتبني للطبيعة والمرأة والقصور والملاهي بالقلة، لعدم ميله إليها، ولا تشغله عنها بالاعتزال بالنفس وطلب المعالي ومدح الشخصيات، واهتمامه بالخيال والخروب. لكنه تفتقن في وصف الأخلاق وما فيه قوة كالجيوش المقدامة، والأسود الضاربة، والسيوف المسولة، والخيول، حيث يعتبر طموحاً للعزّة والمجَد والإباء، وميلاً للقوة، وركعاً بالحرروب، وفي هذا الضمار يقول:

وَلَا تَخْسَبَنَ الْمَجَدَ زَفَّاقَةَ فَمَا الْمَجَدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتَحُوكُ
وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ الرِّجَالِ وَأَنْتَ تُرِيَ لَكَ الْهَوَانُتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجَرَ

١٣ - حلقة الهجاء

هجاء المتبني اجتماعي وفعالي، ولاذع وشديد وقاتل، وحاذد لا ساخر، وسالخ لكرامة المهجو. وقد هجا المتبني أساساً ثلاثة شخصيات، هي: إسحاق بن كيغلخ في طرابلس، وكافور في مصر، وضبة بن يزيد العيني الأسدية القرمطي. ومن هجائه:

لَا تَشْتَرِي الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَمَ مَعَهُ إِنَّ الْعَيْدَ لِأَتْجَاسٍ مَنَاكِيدُ^١
وَلَمْ يَكُنْ هَجَاءُ الْمُتَبَّيِّ لِلْمُصْرِينَ سَافِرًا وَجَارًا شَانْ هَجَائِهِ لِلْبَغْدَادِينَ.

14 - قلة الألفاظ غير التزهية

من بين الذين اهتموا بديوان المتبّي، هناك من أسلقوها بعض الأشعار التي تختلف الأدب والأخلاق، ولا تليق بمجالس العلم. وفي هذا السياق جاء في "أعراف الطيب" في شرح ديوان أبي الطيب" ما يلي:

"وردت في ديوان المتبّي بعض الألفاظ التي تبعد عن النزاهة، ولا يصحها أدب المجالس، ولا يجعل إقرأها في حلقات الدروس. وهي في أبيات وقصيدة هما:

- قصيدة ميمية في هجاء ابن كيغلخ.

- قصيدة في هجاء ضبة بن يزيد العتببي."

وقال اليازجي: " يجعل ما أسلقوه من الديوان كله لا يكاد يبلغ سبعين بيتاً، منها خلو النصف من القصائدتين".^١

من خلال ما سبق يتضح لنا جلاء أن شعر المتبّي من أبرز ما عرفه الشعر العربي خصوصاً، والأدب العربي عموماً. وتبين لنا بشكل ناصح أن خصائصه عديدة، وأأن ميزاته فريدة. وهو يُعدّ مفخرة وحمل اعتزاز للشعراء خاصة، والأباء عامة.^١

هواش واحلات

♦ الدكتور عبد القادر عيساوي: أستاذ بكلية الآداب واللغات والفنون، بجامعة سيدني بلعباس، الجزائر.

^١ - يُنظر: جورج غريب. المتبّي دراسة عامة (سلسلة الموسوع في الأدب العربي ٨)، بلتون طبعة، بيروت، دار الثقافة. بلتون تاريخ، ص .53.

^١ - يُنظر: جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الثاني ، دط، بيروت ، موفر للنشر ، مكتبة الحياة ، دت ، ص. 437.

جورج عبلو معتوق، المتبّي شاعر الشخصية القوية ، ط١، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨١ ، ص. ٨٨.

جورج غريب. م.س ، ص. 49 - 56.

خليل شرف الدين ، المتبّي أمّة في رجل ، دط ، بيروت ، دار مكتبة الهلال ، ١٩٨٠ ، ص. 8 و 94 و 104 و 144 .
د. محمد محمد حسين ، المتبّي والقراطمة ، ط. ١، الرياض ، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٤٠١هـ -

١٩٨١ ، ص. ٩٤.

thaqafa.sakhr.com/motanabey/manahed/0002.asp

^١ - يُنظر: عبد الرحمن البرقوقي ، شرح ديوان المتبّي ، الجزء ١ و ٢ و ٣ و ٤ ، دون طبعة ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م ، ص. ٨١ - ١٢٦.

^١ - كتابنا "من الأدب العربي: للدح في شعر المتبّي" ، ط ١ ، مكتبة الرشاد ، سيدني بلعباس ، ١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م.

- كتابنا "من الأدب العربي: الفخر في شعر المتنبي" ، ط ١ ، مكتبة الرشاد ، سيدى بلعباس ، ٢٠١١ هـ / ٢٠١١ م.
- ١ - يُنظر: جورج غريب. م.س. ص. 323 - 337 .
- ١ - الصرف: المخالفة. شرب الكرم : الماء.
- ١ - منكيد: قليل الخير.
- ١ - ناصيف اليازحي اللبناني ، م.س ، ص ٩ - ١٠ و ١٩ - ٢١ بتصريف.
- ١ - هنا وقد تناولت حياة المتنبي وشعره في كتب مستقلة تم طبعها هي :
- (١) المتنبي.
- (٢) ديوان المتنبي في جداول مختصرة.
- (٣) شعر المتنبي : دراسة إحصائية.
- (٤) من الأدب العربي : المدح في شعر المتنبي.
- (٥) من الأدب العربي : الفخر في شعر المتنبي.